غادة بابل

La Belle de Babylone.

—٥—

بعد انقضاء ايام العيد، غادر شمشو بابل في قافلة فيها رجال ونساء ومعهم اثقال وبضائع محملة على حمير وبغال وجمال. وبينها خيام تضرب وقت حط الرحال فيلجأ اليها المسافرون اذ لا منازل او خانات مشيدة هناك. واخذ المسافرون معهم زادا وادوات طبخ. وكان السفر مؤنسا مطربا لاعتدال الهواء وانتعاش الطبيعة بقدوم الربيع الزاهر ووشيه الارض بحلل سندسية و ازهار ورياحين تعطر الفضاء بشذاها.

مرت القافلة بجنان نضرة كانت في ضواحي المدينة تتخللها فسحات لزراعة البقول. وكانت تسقى تلك المزروعات من ترعة تتشعب من الفرات، إلّا ان الماء لا يبلغ الى المرتفعات من اراضي تلك الجنات عفوا بل ترفعه آلة وهي سلة مخروطة الشكل تتخذ من خوص النخل وتطل بالقار ومربوطة بحبل يتصل طرفاه بعتلة مرتكزة على قائمة منتصبة على ضفة الترعة فتهبط السلة في الماء ثم يرفعها الرجل الساقي ويفرغها بيده في ساقية تصرف الماء الى المزارع (١)

سأل شمشو احد فلاحي تلك الديار: لمن هذه الجنينة؟

فاجابه الفلاح: ان الارض ملك نبوصرايني وقد اخذها منه بالمغارسة «نبوبل شماة» لمدة اربع سنوات وفي السنة الخامسة تقسم مناصفة بين الملاك والمغارس (٢) وهذه هي السنة الاخيرة من ذلك العقد.

شمشو — ولماذا ترك قسم مهم منها بورا الا يعلم نبوبل شماة ان القسم البور يقع في حصته عند القسمة (٣)

(١) تسمى في العربية الفصحى «المنزفة» وفي لسان البصريين المصريين «السلة» وفي مصر «الشادوف».

(٢) المادة ٦٠ من شرائع حمورب.

(٣) المادة ٦١ من شرائع حمورب.

الفلاح ـ يعلم ذلك « نبو يل شماة » كل العلم ولكنه ماذا يعمل فان الفلاح الذي كان عنده قبل سنتين ، فتح في ابان الفيض سدة الري فغرق باهماله هذا مزارع الجيران فاضطر الى ان يدفع اليهم قمحا بمقدار يناسب غلات المزارع في هذه المنطقة (١) فكلفه ذلك مالا مما اعاقه عن القيام بغرس هذه الارض .

بلغت القافلة عند الهاجرة محلا وارف الظل ، فاقترح شمشو على المحكام (رئيس القافلة) ان يوقفها هناك هنيهة للاكل والاستراحة ، فخلدوا الى ظل شجر توت كان يغطي آلة سقي تختلف عن تلك التي شاهدوها في الجنان القريبة.

تقوم تلك الآلة على مرتفع من الارض لا يبلغه الماء حتى في ابان الفيضان وقد حفرت هناك بئر او حفرة يدخلها الماء من النهر او ينبع فيها نبعا وعلى حافة هذه البئر زرانيق او اسناد من جذوع النخل يعلو البكرات التي تتخذ للسقي وتجمع هذه الزرانيق من اعلاها بتعاليق وهي عوارض من الجذوع ايضا تشد بحبال من الياف النخل . وبين زرنوق وزرنوق تركب محالة اي بكرة على قبين والقب الثقب يجري فيه المحور ويعبر على كل بكرة حبل يشد طرفه بالعرقوتين (وهما خشبتان تعرضان على الدلو كالصليب) وتتخذ الدلو من جلد مدبوغ والطرف الاخر من الرشاء يشد بثور او ببرذون ويربط مؤخر الدلو ـ وهو ضيق كقوهة القربة ـ بسير ويمر هذا السير على نحو مغزل او قل بكرة مرتفعة بضعة سنتيمترات عن الارض . وينتهي الى الثور فيرتبط به ويختلف عدد الثيران او البراذين بعدد البكرات والدلاء . ولكل حيوان من هذه الحيوانات فلاح يداريه فينزل الفلاح مع الحيوان في حفرة منحدرة من الارض حيال البئر فاذا بلغ منتهاها يفرغ الماء الذي في الدلو في حوض ويتسرب من هناك الى المزارع . ثم يعمد الرجل بالحيوان الى رأس تلك الحفرة فينحدر آنئذ الدلو في البئر وتمتلئ ماء وهكذا دواليك (٢)

(١) المادة ٥٥ من شرائع حمورب . (٢) هذا وصف الكرد المعروف منذ عهد البابليين حتى اليوم في العراق وهو الذي سماه العرب «الساقية» من باب التوسع لان الساقية في الاصل الغرب واداته والناقة التي يستقى عليها وقد اتيت على وصفها في هذه الرواية لانه اخذ بالزوال من العراق باتخاذ المضخات التي تديرها المحركات .

وبعد ان اغتسلوا مما لحقهم من غبار الطريق واكلوا هنيئا وشربوا مريئا استأنفوا السير فلاقوا في طريقهم قطعانا من الغنم والمعزى والبقر تسرح في المروج والحقول وشاهدوا مساكن الرعاة وهي خيام من شعر المعزى فكانوا يضربونها حيث يستريحون لانتجاع المراعي ويطوونها ويحملونها حين الظعن . ورأوا مساكن الفلاحين وهي من مدر . فنزل القفل على مقربة من تلك الجماعة وهي المرحلة الاولى من السفر .

وكان الرعاة يراقبون عن كثب قطعانهم ويزمرون لها .

كانت عيشة تلك الجماعة البدوية من الفلاحين والرعاة مشهدا من مشاهد الحياة الطبيعية الساذجة التي يصبو اليها سكان المدن من حين لآخر . فافتتن بها شمشو وتذكر ايام كانت اراضيه عامرة فشرع يجول في الحي ليسري عنه ما الم به من الذكرى الموجعة وما اوجع ذكرى ايام الرخاء في الضيق !

وكان يلهي نفسه تارة بمشهد الحلابين والحلابات الذين يحلبون البقر والغنم وهم جاثمون وراء تلك الحيوانات على الطريقة المألوفة عندهم يومئذ وطورا يقف عند الفلاحين الذين يخبزون اقراص الحنطة والشعير والذرة في تنور ويعدون طعام المساء في قدر كبيرة .

وبينما هو يجول قامت مشاجرة بين راع من الرعاة واحد الزراع لان الراعي ادخل قطيعه في المزرعة فاتلف شيئا غير يسير من القمح . فتسابا وتشاتما وتلاكما وتدخل في الامر اصحاب المتخاصمين فكان كل فريق ينتصر لصاحبه وكادت فجوة الشر تتسع لولم يتوسط في اطفاء نار الفتنة بعض العقلاء والطاعنين في السن واتفقوا على ان يعقدوا لجنة تحكيم يرأسها شمشو الذي كان معروفا عندهم .

فاجتمعت تلك اللجنة حالا وحكم شمشو بان يعطي الراعي للزارع عشرين « جورا » من القمح لكل « جان » من الارض ترعى غنمه فيها (١)

لها تلو يوسف غنيمة

(١) المادة ٥٧ من شرائع حمورابي .